ابن الخباز الموصلي (ت : ٥٣٩هـ - ١٢٤١م) قراءة في سيرته ومؤلفاته

د. نورة إبراهيم توفيق*

ملخص البحث

يعنى هذا البحث بسيرة العالم العربي الأربلي الموصلي ابن الخباز (٥٨٩هـ/١١٩٣م) – (ت: ٦٣٩هـ/١٢٤١م) مع مصنفاته ، فقد ولد في الموصل وعاش فيها ، وطلب العلم حتى صار عالماً من أعلام الموصل ، وقد عاش في العهد الأتابكي ، ومما امتاز به ولعه بالنحو والأدب حتى صار من أشهر النحاة والأدباء الموصليين .

Abstract

This research deals with the biography of the Arab historian, Al-Erbili, Al-Mosuli, son of Al-Khabbaz (Ibn-Al-Khabbaz)-(٥٨٩AH/ ١١٩٣AD), with his works. He was born in Mosul and lived there. He sought knowledge until he became a scholar of Mosul. He lived in the Atabek era. By his passion for literature and literature even became one of the most famous grammarians and writers.

* مديرية تربية نينوى .

المقدمة

ازدهرت الحياة العلمية في الموصل إبّان العهد الأتابكي (٥٢١-٦٦٠هـ/ ١١٢٧-١٢٦٢م) وشملت العلوم الشرعية منها علوم القران والحديث الشريف وأصول الدين والعقيدة والخلاف والجدل والمناظرة والفقه والعلوم الأدبية من الأدب والنحو والصرف والشعر واللغة والبلاغة والعروض والألغاز والتراجم ، كما تقدمت العلوم العقلية أيضاً مثل علم الطب والرياضيات والكيمياء والفلك والتنجيم ، فظهر علماء كبار في كل من هذه العلوم المختلفة أبدعوا في نتاجاتهم العلمية والأدبية وساهموا في نشر العلم والمعرفة في ربوع العالم الإسلامي وازدهار الحضارة العربية .

لقد كان للموصل شأن كبير في العلوم، خاصة لأدبائها وشعراءها الذين أبدعوا في نتاجاتهم الأدبية، وصنفوا العديد من الكتب في الشعر، فصاروا رموزاً ازدانت بهم الحضارة العربية الإسلامية في تلك المدة من الزمن.

إن الهدف من هذا البحث هو تسليط الضوء على حياة النحوي والأديب ابن الخباز الموصلي وسيرته ومؤلفاته الأدبية في الموصل، إن الصفة المميزة لعلماء وأدباء الموصل هي أن القسم الأكبر منهم كانوا يتنقلون بين الشرق والغرب من أجلِ المعرفة وطلب العلم في مختلف المجالات وكانت رحلاتهم العلمية تستغرق سنين طويلة ثم يعودون إلى مدنهم ويقومون بتأسيس المدارس والمعاهد العلمية والتدريس للعلوم الذي أتقنوها فيها.

أما القسم الأخر من العلماء كانوا في الموصل ولم يغادروها من أجل تدريس طلبة العلم، ومن هؤلاء الأدباء، العيسفني (ت: ٦١٣هـ/ ١٢١٦م) ([١])، والماكسيني (ت: ٦٠٣هـ- ١٢٠٦م)([٢])، والقرطبي (ت: ٥٦٧هـ- ١١٧١م)([٣]) وغيرهم الذين أبدعوا في علوم مختلفة كانوا مصابيح أضاءت بهم الموصل ووصل نورها إلى مدن أخرى.

وتتجلى أهمية البحث في إبراز دور شخصية تاريخية عني بالأدب والنحو في الموصل ألا وهو ابن الخباز من حيث سيرته ومؤلفاته الأدبية وبالرغم من وجود أعمال تحقيقية وبحثية شملت مصنفاته الأدبية.

يعد ابن الخباز عالماً نحوياً وأديبا كبيرا عاش في العصر الأتابكي وكانت علاقاته الكثيرة الحميمة والجيدة بالعديد من العلماء الأفاضل ومنهم أبن الشعار الموصلي (ت: ٦٥٤هـ-١٢٥٦م) ([٤]) الذي شهد أغلب الأحداث خلال حياته، لذلك يعد كتابه " قلائد الجمان " من أهم المصادر التي اعتمد عليها في هذا البحث.

ومن الصعوبات التي واجهت الباحثة هي قلة المصادر التي تتحدث عن شخصية ابن الخباز الموصلي ماعدا كتاب " قلائد الجمان " الذي يكاد يكون المصدر الوحيد التي أطنب في إيراد معلومات وافية عن سيرة ابن الخباز الموصلي وأبياته الشعرية التي أنشأها.

قسمّ البحث إلى مقدمة وستة عشر محوراً وخاتمة، جاء تسلسلها في البحث من ذكر أسمه وكنيته، ألقابه، أصلهُ، نشأته، مولده، أسرته، نسبه، مذهبه ، وظائفه ، علاقته مع علماء عصره، وفاته، ومصنفاته، شيوخه، تلامذته، ومزاياه ، واشعاره .

١. اسمه وكنيته .

اتفقت معظم المصادر التاريخية على أن اسمه هو أحمد بن الحسين بن أحمد بن أبي المعالي بن منصور بن عليٍّ،([٥]) وكنيته أبو العباس ([٦]) وأحياناً ((أبو عبد الله))([٧]).

٢. ألقابه .

أُشتهر أحمد بن الحسين بلقب (ابن الخباز) بسبب كون والده خبازاً يمتهن صنع الخبز وبيعه ([٨]) ، ويربط البعض العمل مع المدينة التي سكنتها أسرته لأول مرة وهي أربل فأطلق عليه : (ابن الخباز) ([٩])، كما لقُّبب ألقاب كثيرة، ومنها: (النحوي)([١٠]) ، و (اللغَوي)([١١])، و(الاستاذ البارع)([١٢])، أو (الإمام البارع، المفتي، العالم)([١٣])، و (الفرّضي)، و (الحاسب)، كما لقب بـ (الأديب)، و(الشاعر) ([١٤]) ، و (الشيخ) ([١٥])، و (عَلامَة زمانه)([١٦])، و(العلَّامة)([١٧])..وأما لقبه الذي لقبه به شيخه عند الإجازة فهو (شمسُ الدين) ([١٨]) ، أو (الشمس ابن الخباز) ([١٩])، كما عُرف بـ: (صاحب التصانيف)([٢٠])، و (الأربلي)([٢١])، و(المَوْصِليّ)([٢٢])، وكما عُرف أيضاً باسم المدينة التي درس بها العلوم الأدبية وصنّف المؤلفات والتصانيف العديدة (الموصلي الضرير صاحب التصانيف الأدبية) ([٢٣]) كما نجد أن هناك من

يرجعه الى أربل التي كانت مدينة أبيه التي عاش فيها وسكنها ثم الموصل التي ولد فيها ابن الخباز([٢٤]).

٣. أصله .

يرجع أصله إلى إحدى القرى الواقعة في جنوب بغداد ، وفي رواية ابن الشعار([٢٥]) " أن أصل آبائه من بعض قرى العراق "يبدو أنهم كانوا من القبائل العربية المستقرة في قرى بغداد، ونتيجة للتغيرات الطبيعية والمناخية من ارتفاع درجات الحرارة فضلاً عن العامل الاقتصادي من قلة الرزق أو الغلاء التي حصلت في العراق، وإهمال الزراعة ، والظروف الاجتماعية لهجرة السكان من الأرياف والقرى إلى المدن الكبرى ، والبحث عن متطلبات العيش الكريمة ؛ فقد رحل أجداده إلى أربل وكانوا من الطبقة العامة الفقيرة ثم عمل أبوه خبازاً فعرف واشتهر أبو العباس بعد ذلك (بابن الخباز) ثم تنقل أباه بعد مدة من الزمن إلى الموصل ونزل بها وكانت الموصل في ذلك الحين قد ذاع صيتها بين المدن الكبرى من الناحية العلمية لذلك أتجه أبوه إلى القراءة والاطلاع على الكتب وأخذ يهتم بالعلم والكتب الأدبية ويصاحب الأدباء والعلماء ثم أصبح يشجع ولده أبا العباس على العلم والتعلم بعد ذلك ويحثه على الدراسة ، وخلف بعد وفاته العديد من الأولاد والبنات([٢٦]).

وكانت الرحلة إلى مدن العراق ومنها (بغداد، البصرة، الكوفة، واسط، الموصل، تكريت، سنجار وغيرها) محط طلبة العلم وقبلة العلماء من مختلف مدن العالم فكان قسما من هؤلاء الطلبة يمكثون بها لفترة طويلة فطاب بقائه فلم يغادره، ومنهم من عاد إلى بلده وقد أفاد واسترزق من علمه، ومنهم من بلغ مكانة كبيرة فأصبح يجلس مكان شيخه ويدّرس ([٢٧]).

وكانت الأجواء في الموصل مناسبة للعلماء والطلبة لتقديم جهودهم العلمية ، فضلا عن امتلاك الموصل أرثاً حضارياً متميزاً ، فهي تمتلك المقومات المدينة الراعية للعلوم والآداب والفنون والمهارات العلمية والوجدانية المعتمدة على العلوم الإسلامية وتلك مزية لها وخصيصة بين المدن العربية الإسلامية ([٢٨]).

٤. مولده .

ولد ابن الخباز في الموصل في اليوم الثاني عشر من جمادى الأولى الموافق من سنة (٥٨٩هـ - ١١٩٣م) ([٢٩]). ولم نجد خلافا بين المؤرخين في ذلك.

٥. نشأته .

نشأ ابن الخباز في الموصل مقبلاً على العلم والأدب محباً لهما وقد انعم الله عليه بحفظ كتابه العزيز في ايام صباه، فضلاً عن ذلك فقد حفظ كتاب ((التنبيه))لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الشافعي (ت ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م) ([٣٠]).

ثم تطلع إلى الأدب والشعر ودرس عند العلماء الكبار في الأدب والنحو في الموصل ومن أبرزهم عمر بن أحمد بن أبي بكر بن مهران، أبي حفص الضرير النحوي العيسفني (؟-٦١٣هـ/؟ - ١٢١٦م) ([٣١]) الذي كان من أشهر أدباء عصره إذ تتلمذ على يده حيث قرأ العديد من الكتب الأدبية والنحوية فأصبح ملماً في علوم مختلفة منها النحو والشعر والعروض والقوافي واللغة ومبدعاً فيها ، إذ أعانه في إبداعه الحفظ السريع والفهم الحاذق وقوة الذكاء والفطنة الكبيرة للاطلاع وحبه للعلم والتعلم، ورغبته القوية في ارتجال الشعر واستحضاره أينما كان الزمان والمكان ، لذلك تفوق على أصحابه وأقرانه في العهد الأتابكي في الموصل فأصبح من أشهر أدباء عصره لذلك أقبل عليه الكثير من طلبة الأدب والنحو والشعر لاسيما بعد أن اعتلي منصب شيخه فشرع منذ ذاك يدرس الأدب والنحو في الموصل ([٣٢]) وتوثيقاً لأهليته الكاملة في العلم والأدب أشاد بفضله ابن الشعار الموصلي قائلاً: "وهو اليوم شيخ وقته، وحَبر مصره، ولم ير في زماننا أسرع حفظاً منه ولا أكثر استحضاراً للأشعار والنوادر والحكايات واللطائف" ([٣٣]).

٦. أسرته .

كانت أسرة ابن الخباز أسرة كبيرة ومتواضعة.. وبعد استقرار والد في مدينة الموصل ولد له العديد من الأبناء والبنات والذين من بينهم موضوع البحث ابن الخباز، ويبدو أنهم كانوا يزاولون مهناً وحرفاً غلب عليها التواضع كحرفة صنع الخبز وبيعه حيث انفرد كتاب "قلائد الجمان " في ذكر أسرة ابن الخباز من بين المصادر التاريخية ([٣٤]).

٧. نسبه .

تؤكد المصادر التاريخية الموثوقة– التي بين أيدينا –أصوله العربية، حيث يرجع نسبه إلى "بني عليٍّ". وهم: بطن من بطون بكر بن وائل من العدنانّية ([٣٥])، وقيل هم: بطن من جذام من لخم من القحطانية ([٣٦]).. وتتمثل ألان بعشائر الفرات الأوسط إذ تعرف اليوم بـ "بني عليٍّ"، والتي تستوطن القسم الجنوبي من العراق ([٣٧]).

٨. مذهبه .

أما فيما يخص المذهب فقد كان ابن الخباز شافعيّاً ([٣٨]) حيث درسَ الفقه الشافعي على كتاب (التنبيه) الذي مرَ ذكره ([٣٩]) ، ومن الأدلة على أنه كان شافعي المذهب تدريّسه في مسجد "سكة أبي غنج" ([٤٠]) الواقع في درب" أبي نجيح" ([٤١]) لصاحبه أبي الكرم محمد بن علي ابن مهاجر الموصلي الشافعي الذي أصبح فيما بعد مدرسة المهاجرية ([٤٢]) وكان مخصصاً للمذهب الشافعي ثم انتقل إلى المدرسة البدرية وبقي مدّرساً فيها إلى سنة وفاته ([٤٣]) ومن أشهر مّدرسي المدرسة البدرية كمال الدين بن منعة (ت: ٦٣٩هـ / ١٢٤١م) ([٤٤]) ومحمد بن علوان بن مهاجر أبي المظفر (ت: ٦١٥هـ / ١٢١٨م) ([٤٥]) ومن المؤكد أن هؤلاء كانوا أشهر علماء الشافعية في الموصل كما كان لابن الخباز صلات وثيقة مع مدّرسي المدرسة النورية ([٤٦]) والتي اختصت بتدريس المذهب الشافعي ([٤٧]) .

٩. وظائفه .

شغل ابن الخباز وظيفة المدرس في مسجد أبي غنج لصاحبه أبن المهاجر الموصلي، حيث كان يدرس علوم الأدب والعربية والقرآن وغيرها من الصباح الباكر إلى نهاية العشاء، وكان يتقاضى راتباً شهرياً مع توفير جميع الراحة من الغذاء والملابس والنوم والوقود في المسجد ، ثم أنتقل إلى المدرسة البدرية لمؤسسها بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل (ت ٦٥٧هـ / ١٢٥٩ م) حيث شغل مدرساً أيضاً واستمر بها إلى حين وفاته كما نراه أيضاً بعد وفاة شيخه أبي حفص العيسفني جلس مكانه وأخذ يدرس الأدب والنحو وغيرها ثم أصبح رئيساً لإفادة علوم الأدب والعربية والقران والفرائض والحساب والشعر وغيرها ([٤٨]) كما أكدنا ذلك في سيرته .

١٠. علاقته مع العلماء والأفاضل .

يعُد ابن الخباز من شعراء الموصل المبدعين ومن أدباءها المشهورين والذين ذاعت شهرته من خلال الحقبة الأتابكية ، وكان له علاقات جيدة وحميمة مع العديد من العلماء والساسة في أطراف المجاورة والقرى القريبة من الموصل فمن هؤلاء أبو البركات شرف الدين أبن المستوفي الأربلي (ت: ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) الذي شغل منصب الاستيفاء في عام (٦٢٩هـ / ١٢٣١م) عهد حكم مظفر الدين الكوكبري حاكم اربل (٥٤٩- ٦٣٠/ ١١٥٤- ١٢٣٢م) إذ يرشدنا بذلك أبن الموصل والمعاصر له أبن الشعار (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) حيث ينشده العشرات من الأبيات الشعرية في جميع المناسبات وكان بينهما مراسلات شعرية في مدح الوزير ابن المستوفي لما شاع عن هذا الوزير من الفضل والجود وإكرام لأهل العلم واهتمام بالعلماء بين المدن ، فكتب أبياتا شعرية مدح به ابن المستوفي وأرسله من الموصل إلى أربل ،ووثقه بذلك ابن الشعار الذي كان لنا مصدراً مهماً من مصادرنا التاريخية والأدبية ([٤٩]) ، إذ تعد كتابه مصدراً للتراجم العديد من الشخصيات التاريخية من المدن عديدة في مختلف العلوم والفنون والمهن والتي قابله أثناء حياته ([٥٠]) .

كما نستدل بكتاب ابن الشعار " قلائد الجمان " على وجود علاقة وثيقة قوية بينهما من حيث تواجدهما في الموصل وكانا يجلسان في المجالس العلمية إذ يروي ابن الشعار هذه الأبيات الشعرية في المدح والغزل والذم والرثاء للعديد من العلماء الموصليين الفضلاء الذين منهم: أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الكريم الحنفي البغدادي (ت: ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م)،الذي كان معيداً في المدرسة النورية ([٥١]) . وهذا يدل على وجود علاقات قوية بين العلماء وأفاضل ووجهاء من أهل الموصل حيث كانوا يجتمعون في مجالس علمية وشعرية ويتبادلون الآراء والأحاديث ويتناقشون فيما بينهم.

١١. وفاته .

توفي ابن الخباز في الموصل في ١٠ رجب من سنة (٦٣٩هـ / ١٢٤١م) ([٥٢]) بعد ما أمضى حياته مّدرساً كبيراً ومشهوراً في الموصل في العلوم العربية والنحو والقرآن وغيرها في المدرسة

البدرية إلى سنة وفاته وكان قد فقد بصره بصورة كاملة ([٥٣]) وقد بلغ من العمر خمسين سنةً([٥٤])

١٢. علومه .

اجتهد ابن الخباز في دراسة العلوم وحفظ الكتب العربية والأدبية اجتهادا كبيرا، إذ خصّه الذهبي بـ ((صاحب التصانيف الأدبية)) ([٥٥]) ، لأن معظم تصانيفه ومؤلفاته كانت في مجال الأدب، وكان كثير النوادر والملح([٥٦])، وقد نال التعب والمرض من صحته من أجل العلم والتعلم منالاً كبيراً حتى فقد بصره وأصابه العمى بصورة كاملة.

ففي بداية حياته حفظ أولاً القرآن الكريم ، وفي مجال الفقه قرأ كتاب التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي حفظاً متقناً كما أسلفنا في سيرته. ثم توجه إلى دراسة كتاب: ((الفخري في الحسنات)) وحفظه عند الشيخ أبي المعالي، وفي أثناء دراسته أصيب بمرض السل حيث بقي مريضاً به مدة من الزمن لكنه عوفي منه ([٥٧]).

وفي مجال الكتب النحوية والأدبية، حفظ كتاب (الإيضاح) ، وأتقن حفظ كتاب (التكملة) لأبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي (ت: ٣٧٧) ([٥٨]) ، كما حفظ كتاب ((المفصل في صنعة الإعراب)) لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) ([٥٩]) ، كذلك حفظ كتاب ((الكافي في علم العروض والقوافي)) لأبي زكريا يحيي بن علي بن الحسن بن موسى بن بسطام الخطيب التبريزي اللغوي (ت: ٥٠٢/ ١١٠٨م) ([٦٠]) ، كما حفظ كتاب ((مجمل اللغة)) لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م) ([٦١]) ، وحفظ كتاب ((الفخري في الحساب)) ([٦٢]) وكان ملماً بعلم ((العروض والحساب)) ([٦٣]).. هذا فضلا عن شعره الرائق ([٦٤]) والجيد ([٦٥]) ، حيث حفظ لكثير من أشعار العربية من العصر الجاهلي والإسلامي والمعاصر له والمحدثين من الشعراء الذين لا يعدون ولا يحصون ([٦٦]).

١٣. شيوخه .

درس ابن الخباز العلوم الأدبية على يد العلماء في الموصل، ومن هؤلاء الشيوخ هو أبو حفص الضرير النحوي العيسفني (ت: ٦١٣هـ- ١٢١٦م) ([٦٧]) ، كما درس على يد الشيخ والفقيه الشافعي أسعد بن يحيي بن موسى بن منصور، أبو المعالي السلمَي السنجاري (ت: ٦٢٤هـ - ١٢٢٧م) ([٦٨]).

١٤. كتبه ومصنفاته .

بعدما أكمل ابن الخباز دراسته للكتب الأدبية والنحوية، وتدريسه لها وتبحره فيها توجه إلى التصنيف ووضع المؤلفات في هذا المجال، وكان قد أبدع في مجال علمي النحو والعروض فصنف فيه كتباً كثيرة.. منها:((الجوهرة في مخارج الحروف)).وشروح لكتب "ابن جني" التي منها كتاب ((الإلماع في شرح اللمع))، وكتاب ((التوحيد)).أما في مجال علم العروض فقد صنف كتاباً سماه ((تحرير المقياس في تفسير القسطاس)).وكتاب ((قواعد العربية))، وكتاب ((كفاية الإعراب عن علم الإعراب)) ، وكتاب ((نظم الفريد في شرح التقييد))، إذ شرح فيه المقدمة الجزولية، كما صنف كتاباً في "شرح ألفية ابن معط" سماه ((الغرة المخفية في شرح الدرة الألفية)) ([٦٩]) ، أو ((الغرة في المسائل الألفية)) ، وكتاب ((الإفصاح في الجمع بين المفصل والإيضاح)) حيث لم يكمله بصورة نهاية ، وكتاب ((النهاية في شرح الكفاية)) ، وهو: كتاب مذيل طويل جداً، وقد نسخ منه عدد كبير ، شرح فيه مسائل كثيرة وشمل مواضيع مختلفة في النحو لم يطرقها أحد من قبل، كما أبدع في كتابه ((الفريدة في شرح القصيدة))،حيث شرح فيه قصيدة الشاعر والأديب الكبير سعيد بن المبارك بن الدهان (ت:٥٦٩هـ- ١١٧٣م) ([٧٠]) ، وعالج فيه أمورا ومواضيع نحوية وإعرابية معقدة، كما دخل في معالجة مسائل "شرح المفصل ([٧١]) " وشرحها مرتين لكنه وقع في أخطاء معقدة كثيرة ([٧٢]).

١٥. صفاته .

كان ابن الخباز رجلاً أسمر اللون، ضخم الهيئة ، خفيف العارضين، ذا لحية سوداء حسنة ضعيف البصر، وأثناء دراسته عند شيخه أبي المعالي أصيب بمرض السوداء وبقي مريضاً إلى مدة ثم عوفي بعد ذلك، وبعد ما تقدم في العمر فقد بصره كلياً (([٧٣] .

١٦. أشعاره .

عرف ابن الخباز الموصلي أنواع البحور الشعرية ومنها (الكامل، الطويل، القصير، الخفيف، البسيط)، وقد تميز شعرُه وتعددت أغراضه التي طرقها، فعرف المدح، الهجاء، الرثاء، الوصف، الغزل، وغيرها...ومثال المديد ما امتدح بها الوزير ابن المستوفي الأربلي الذي لم يكن له به علاقة ما، أو معرفة سابقة فضلا عن وجود المراسلات بينهما.

إن ابن المستوفي عُرف عنه في أربل الكرم والسخاء ، ومنح الأموال للأدباء والشعراء، وحبه لهم، ورعايته للعلم والأدب، وكان مديح ابن الخباز له لأجل صفاته النبيلة، وأخلاقه العالية، التي شاعت عنه عند أهل العلم والمعرفة. فمن شعره في هذا المجال قوله ([٧٤]):

جَمَعَ الفضَائَل وَالفوَاضلَ بَعْدَ ما وبنا من الشرف الرفيع مَحَلَّة
يا وَاَلَيَ الشُّعَرَاء حلْمَاً إنمَّا لكَ بَيْتُ عِزَّ لاَ يُقَوْمُ بوَصفِهِ
دَانَ اللئام بتركها وشتاتها جَعَلَ الّطباَق السَّبْع من شرفاتها
يَجنْي رعايا الناس حلم وُلاَتَها أُضْعَافُ ما حَبَّرْتُ مِنَ أبيَاتهَا

والذي يميز شعره اختياره كلمات جميلة عذبة، مستعملاً أسلوباً رقيقاً، سهلاً، ذا قافية واحدة، كما أنه اتخذ من الأمور الاجتماعية البسيطة مواضيع مهمة لشعره، إذ ناقش فيها حكاية صغيرة لحدث قصير. فمثلاً قال([٧٥]):

نَاوَلْتُهُ قَوْساً بِلاَ وَتَرٍ لَهَا وَشَرِبتُ مِنْ كَعْبٍ لَدَيْهِ مُسَمّنِ
سَهْمٌ إذَا مَا صَابَ أحْيَا الأنْفُسَا فَأثَرْتُ مِنْ عَسْلٍ تُرَاباً أغْبَسَا

ومن الأغراض الشعرية التي استعملها في أبياته الرثاء حيث رثى العديد من أصحابه الأدباء والشعراء والشيوخ الموصليين، فرثى معيد "المدرسة النورية"؛ أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الكريم الحنفي البغدادي (ت: ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) ، وبسبب المنزلة الرفيعة لديه، قال بحقه ([٧٦]):

جَادَ الَغمَامُ كَأَدْمُع الأَحدَاق فَلَقَدَ ثَوَتْ فْيه الفَضَائلُ وَالعُلاّ

قَبْرٌ بِعَيْنِ الشَّمسْ فَضْلُ جَمالَه قَبْرٌ مُقْيمٌ في الثَرى وَعَلاَؤُهُ
قبراً ثَوىَ فيه أبو إسْحَاقِ بثَوَائِهِ، وَمَكَارِمُ الأَخْلاَقِ
بَعْد الشَّرُوق كَبَهجْة الإشراَقِ سَامٍ عَلىَ سَبَعٍ رُفْعَنَ طبَاقِ

وفي موضع آخر يقول ([٧٧]):

جَرَتِ الدُّمُوْعُ فَسُحْبُهَا لاَ تُقلعُ أعَجْبَتَ منْ جَزَعيْ لرُزْءٍ هَدَّنيْ
أبكَي وَلاَ أرْجُو إعَادَةَ ما مَضَىَ فَي كُلَّ يَوْمٍ فَقْدُ خِلَّ مُؤلمٌ
وَمَضَى العَزَاءُ فَلاَ أرَاهُ يَرْجعُ لاَ تَعْجَبَنَّ فَذُوْ الرَّزيَّةِ يَجْزَعُ
ومتى أعَادَتْ ما تَقَضَّى الأدْمُعُ وَمَحَلُّ إيْنَاسٍ خَلاَءٌ بلْقَعُ

مرة بين العلم والجهل، واختارهما غرضاً وموضوعاً لشعره حيث قال[٧٨]:

فَالعْلمُ محَرْوُمٌ بقُبْحِ كَسَادِه وَالجَهْلُ مَرْزُوْقٌ بحُسْن
يَا ليتَن أبَصْرتُ قَبْلَ مَنِيَّتِي مَنْ نَالَ حظّاً مِنْهُ باستحقاقِهِ

ما سبق من الشعر يبين للقارئ الكريم بجلاء ووضوح أن ابن الخباز شاعر ضليع، مفوه، متمكن من قبيل الشعراء السالكين الشعر العمودي،وقد تلون شعره بالأغراض المتعددة والمواضيع الهامة المختلفة، التي منها الاجتماعية، والثقافية، والعاطفية،وهو السهل الممتنع – كما يقال – بعيدة عن التعقيد والغموض والركاكة،قدّم بها آراءه الشخصية والفكرية، واستعمل اللغز فيها للتعبير عن معاني معينة... فضلا عما سبق فقد طرق أبواب ومعاني الفراق، الحبيب، الشمس، الدموع، الزمن، الحظ، الوفاء، الوصل، الموت، القبر، التوفيق، والهداية.

الخاتمة

يتبين من خلال سيرة ابن الخباز بأنه شخصية موصلية أدبية رفيعة، عاصر شخصيات تاريخية: سياسية، وأدبية كبيرة في الموصل وغيرها من المدن كأربيل، ولا ننسى أن أسرته كانت من الأسر الفقيرة التي هاجرت من المدن العراقية، واستقرت في الموصل، واتخذتها موطناً لها لأسباب اقتصادية واجتماعية تم الحديث عنها.. وهنا يجب أن نوضح أمراً في غاية الأهمية، وهي: أن

الموصل لفتت أنظار الجميع، وكان الكثير من الناس يهاجرون إليها لأسباب مختلفة؛ اقتصادية؛ أو اجتماعية؛ أو سيادة الأمن، وربما أسباب علمية؛ أو سياسية في العصر الأتابكي الذي ازدهرت فيه الموصل في جميع المجالات ازدهارا مشهودا.

ومن الأمور ذات الأهمية الأخرى أن ابن الخباز عندما كان طالب علم، كانت أسرته قد استقرت في الموصل، فأخذ يسترزق فيها من أجل العلم والمعيشة معاً، واجتهد ابن الخباز في دراسة العلوم المختلفة، وكانت المرحلة الأولى لطلب العلم تلزم الطالب بدراسة العلوم والشرعية (الدينية)، ثم يواصل طريقه ومسيره في دراسة العلوم التي يرغب فيها، سواء الأدبية منها أو الشرعية أو العقلية... الخ. وتفوق ابن الخباز في الدراسة على أصحابه وزملائه وأقرانه لا سيما في دراسته الأدبية من الشعر والأدب والبلاغة. ثم حصل على الإجازات العلمية من الشيوخ العلماء الكبار الذين أكمل على أيديهم قراءته ودراسته، وقد حل محل أستاذه وشيخه العيسفني بعد وفاته وتصدر حلقته العلمية، فجلس لتدريس الطلبة في مسجد ابن المهاجر الموصلي .

وقد كشف البحث عن جوانب ازدهار الحياة العلمية في الموصل إبان العهد الأتابكي، وكذلك كثرة الوافدين إلى الموصل في ذلك العصر للأسباب المختلفة التي ذكرت، وخاصة الأسباب العلمية. وكانت المدارس والمساجد توفر لطلبة العلم المستلزمات المختلفة من ضروريات الحياة المتنوعة من الراتب الشهري والمأكل والمشرب والملبس و المسكن والوقود .

وبين البحث العلاقة القوية والوثيقة التي كانت بين العلماء ورجال السياسة، بل حتى بين الموصل والمدن القريبة المجاورة التي منها أربل، وسنجار، وتكريت، وتلعفر.

وأخيرا ألقى البحث الضوء على العلوم والمعارف والعلماء وطلبة العلم والمدارس والمجالس والمساجد التي انتشرت في الموصل وأطبقت شهرته فبلغت الآفاق، وخاصة ما يتعلق بشخصية بحثنا ابن الخباز من ولادته وحتى وفاته، وترك من بعده من المصنفات والتأليف والكتب التي جادت بها قريحته النقية.

المصادر

١- الكامل في التاريخ ، (بيروت، ١٩٩٧) ، ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم ، (ت: ٦٣٠هـ) .
٢- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، (القاهرة، د. س).
٣- قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، (بيروت، ٢٠٠٥ م). ابن الشعار ، كمال الدين أبو البركات المبارك ، (ت : ٦٥٤هـ) .
٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (بيروت، ١٩٨٦م). ابن العماد الحنبلي ، عبد الحي بن أحمد بن محمد ، (ت: ١٠٨٩هـ)
٥- مجمع الآداب في معجم الألقاب ، (إيران ، ٢٠٠٢م). ابن الفوطي ، عبد الرزاق بن أحمد أبو الفضل (ت : ٧٢٣هـ) .
٦- تاريخ أربل، (بغداد : ١٩٨٠م) ابن المستوفي، المبارك بن أحمد بن المبارك (ت: ٦٣٧هـ) .
٧- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (لبنان: د. ت) . ابن خلكان ، أحمد بن محمد بن بكر شمس الدين (ت : ٦٨١هـ) .
٨ – البداية والنهاية، (دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م). ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت : ٧٧٤هـ) .
٩- إكمال الإكمال (تكملة لكتاب الإكمال لابن ماكولا)، (مكة المكرمة، ١٩٩٧م) . ابن نقطة الحنبلي ، محمد بن عبد الغني بن أبي بكر (ت : ٦٢٩هـ) .
١٠- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (مصر، د. ت). بن تغري بردي، يوسف بن عبد الله الظاهري ، (ت : ٨٧٤هـ) .
١١- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (بغداد، ١٩٤١م) . حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله ، (ت : ١٠٦٧هـ)
١٢- معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، (بيروت: ١٩٩٣م). الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت : ٦٢٦هـ) .

١٣- تأريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (بيروت، ١٩٩٣م). الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت : ٧٤٨هـ)
١٤- السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت : ٧٧١ه) العبر في خبر من غبر، (الكويت، ١٩٨٤م).
١٥- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت : ٩١١هـ) . طبقات الشافعية الكبرى، (د. م،١٩٨٣م).
١٦- الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك (ت : ٧٦٤هـ) . بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، (لبنان، د. ت).
١٧-الوافي بالوفيات، (بيروت،٢٠٠٠م).
١٨-نكث الهميان في نكت العميان، (بيروت، ٢٠٠٧م).
١٩- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، (بيروت،١٩٨٠م). القلقشندي، أحمد بن علي أبو العباس (ت : ٨٢١هـ)

الهوامش

[١] . محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز شمس الدين المعروف بـ (الذهبي) ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (ط٢، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٣م)، ج٤٦ ص ٣٨٩ رقم ٥٧١؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، نكث الهميان في نكت العميان، علق عليه ووضع حواشيه: مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م)، ص٩٦.

[٢]. شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي المعروف بـ (ياقوت الحموي)، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م)، ج٦، ص ٢٧١٤-٢٧١٦،المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي الأربيلي المعروف ب (بابن المستوفي)، تاريخ أربل، تحقيق: سامي بن سيد خماس الصقار (بغداد، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠م) ج٢، ص ٤٥.

[٣]. أحمد بن محمد بن بكر شمس الدين أبو العباس المعروف بـ (ابن خلكان)، وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، (لبنان: دار الثقافة، د. ت) ج٦، ص ١٧١ -١٧٣؛ محمد بن محمد بن عبد الكريم بن

عبد الواحد الشيباني الجزري المعروف بـ(ابن الأثير) الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري (بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٧) ج٩، ص٣٧١.

[٤]. ابن المستوفي، تاريخ اربل، ج١، ص ٣٨٤.

[٥].ابن الشعار ، قلائد الجمان، مج ١ ج١ ص ١٠٠.

٦. الذهبي)، تأريخ الإسلام ج٤٦ ص ٣٨٩؛ العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، (الكويت، مطبعة حكومة الكويت: ١٩٨٤م)، ج٥ ص ١٥٩.

[٧] .ابن الشعار، قلائد الجمان، مج ١ ج١ ص ٢٥٣؛ الذهبي، تأريخ الإسلام ج٤٦ ص ٣٨٩.

[٨].عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان أبو محمد المعروف بـ (اليافعي)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور (لبنان، دار الكتب العلمية: ١٩٩٧م)، ج٤ ص ٧٩.

[٩]. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج ١ ج١ ص ٢٥٣؛ الذهبي، تأريخ الإسلام ج٤٦ ص ٣٨٩.

[١٠]. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الشهير (بالسيوطي)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (لبنان، المكتبة العصرية، د. ت)، ج١ ص٣٠٤ رقم ٥٦٠.

[١١]. يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري أبو المحاسن الشهير (بابن تغري بردي)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (مصر، دار الكتب، د. ت)، ج٦ ص ٣٤٢.

[١٢]. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج ١ ج١ ص ٢٥٣.

[١٣]. السيوطي، بغية الوعاة ، ج١ ص٣٠٤ رقم ٥٦٠.

[١٤]. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٤٦ ص ٣٨٩.

[١٥]. الذهبي، تأريخ الإسلام ج٤٦ ص ٣٨٩؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج١ ص٣٠٤ رقم ٥٦٠.

[١٦]. الذهبي، العبر، ج٥ ص ١٥٩؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الشهير (بن كثير) ، البداية والنهاية ، تحقيق : علي شيري (دار إحياء التراث العربي : ١٩٨٨م) ، ج١٣ ص ١٨٤ .

[١٧]. الذهبي، تأريخ الإسلام ج٤٦ ص ٣٨٩.

[١٨]. الذهبي، تأريخ الإسلام ج٤٦ ص ٣٨٩؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج١ ص٣٠٤ رقم ٥٦٠.

[١٩]. الذهبي، تأريخ الإسلام ج٤٦ ص ٣٨٩؛ العبر، ج٥ ص ١٥٩؛ بن كثير، البداية، ج١٣ ص ١٨٤. السيوطي، بغية الوعاة، ج١ ص٣٠٤ رقم ٥٦٠.

[٢٠]. اليافعي، مرآة الجنان، ج٤ ص ٧٩.

[٢١]. ابن تغري بردي، النجوم، ج٦ ص٣٤٢.

[٢٢]. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج ١ج١ص ٢٥٣.

[٢٣]. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج١ ج١ ص١٠٠.

[٢٤]. إيمان عبد الرحمن العثمان، الإسهامات العلمية لعلماء الموصل في رحلاتهم إلى الأمصار الإسلامية (بلاد الشام – المغرب – الأندلس) من القرن الرابع الهجري إلى القرن التاسع الهجري، بحث منشور في كلية الآداب (جامعة الموصل – ٢٠١١)، ص ٤٣٧.

[٢٥]. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٤٦ ص ٣٨٩ رقم ٥٧١؛ ألصفدي، نكث الهميان ، ص٩٦.

[٢٦]. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج ١ج١ ص٢٥٣.

[٢٧]. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج ٤ ج٥ ص ٢٠٧.

[٢٨]. ألصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناءوط وتركي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التراث، ٢٠٠٠م)، ج٨ ص٩٨.

[٢٩]. قلائد الجمان، مج١ ج١ ص٢٥٤؛ الذهبي تاريخ الإسلام، ج ٤٦ ص ٣٨٩، رقم ٥٧١.

[٣٠]. ابن الشعار، مج١ ج١ ص ٢٥٣.

[٣١]. أحمد بن علي أبو العباس المعروف بـ (القلقشندي)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري، (بيروت، دار الكتاب اللبنانيين: ١٩٨٠ م)، ج١ص٣٦٨.

[٣٢]. عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ط٧ (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤م) ، ج٢ ص٨١٠ .

[٣٣]. ابن كثير، البداية ، ج١٣، ص١٨٤.

[٣٤]. يراجع ج١٣، ص ١٠.

٣٥. ابن الشعار، مج١ ج١ ص ٢٥٣.

٣٦ . ولمزيد من التفاصيل ينظر: نوره إبراهيم توفيق، حركة العلماء من الموصل وإليها في العصر الأتابكي (٥٢١– ٦٦٠هـ/١١٢٧– ١٢٦٢م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠١٧م، ص ٢٨٤.

٣٧. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج١ ج١ ص٢٥٤

[٣٨]. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١ص ١٠٨ –١٠٩.

[٣٩]. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج١ ج١ ص ٢٦٢.

[٤٠]. ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات ، (القاهرة، دار الكتب الحديثة، د. س)، ص ٣٦٨.

[٤١].ابن الشعار، قلائد الجمان، مج١ ج١ ص٢٥٤ .

[٤٢]. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج١ ج١ ص٢٥٥.

[٤٣]. حنان عبد الخالق السبعاوي، المنهج التاريخي عند ابن الشعار الموصلي (ت :٦٥٤هـ) في كتاب قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠١٠ م، ص ٦٥.

[٤٤]. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج١ ج١ ص٢٥٥.

[٤٥]. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج١ ج١ ص٢٥٤؛ الذهبي، تأريخ الإسلام ج٤٦ ص ٣٨٩.

[٤٦]. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج١ ج١ ص٢٥٤.

[٤٧]. الذهبي، تأريخ الإسلام ج٤٦ ص ٣٨٩.

[٤٨]. الذهبي، العبر، ج٥ ص ١٥٩.

[٤٩]. ابن كثير، البداية، ج١٣ ص ١٨٤.

[٥٠]. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج١ ج١ ص٢٥٤

[٥١]. من مؤلفاته أخرى (مختصر عوامل الإعراب، كتاب الشعر)، وهو إمام المدرسة البغدادية النحوية قصد بغداد ولم يتجاوز عمره العشرين فدرس على يد الزجَّاج والسرّاج، ينظر: صلاح الدين الزعبلاوي، دراسات في النحو، (موقع اتحاد كتاب العرب).

[٥٢].وهو من العلماء المشهورين الكبار من خوارزم في علم النحو والصرف.

٥٣. محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع المعروف بـ (ابن نقطة الحنبلي)، إكمال الإكمال [٥٣].
(تكملة لكتاب الإكمال لابن ماكولا)، ط١، تحقيق، عبد القيوم عبد رب النبي، (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٩٩٧م)، ج ١ ص٤٨٤.

[٥٤]. وهو من العلماء في اللغة من بلاد إيران (قزوين).

[٥٥]. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج١ ج١ ص٢٥٤.

[٥٦]. ابن كثير، البداية، ج ١٣ ص١٨٤.

[٥٧]. الذهبي، تأريخ الإسلام ج٤٦ ص ٣٨٩.

[٥٨]. بن كثير، البداية، ج ١٣ ص١١٨٤

[٥٩]. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج١ ج١ ص٢٥٤.

٦٠. المصدر نفسه، مج١ ج١ ص. ٢٥٣ ؛ عبد الرزاق بن أحمد أبو الفضل المعروف بـ (ابن [٦٠]. ألفوطي) ، مجمع الآداب في معجم الألقاب ، تحقيق : محمد الكاظم ، (ط١ ، إيران ، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ، ٢٠٠٢م) ، ج٤ ص٤٨٢ .

[٦١]. المصدر نفسه، مج١ ج١ ص٣٧٩.

٦٢. مصطفى بن عبد الله المشهور باسم حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٤١م)، ج١ ص١٥٥.

٦٣. وهو من الأدباء والنحويين المشهورين أصله من المقتدية وهي إحدى المحال الشرقية في بغداد [٦٣]. رحل إلى أصبهان وبلاد فارس والموصل وكان علماً من أعلام الأدب والنحو، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢ ص٤٠٨ – ٤١٠؛ الذهبي، سير أعلام، ج٢١، ص٧٧.

[٦٤]. ابن الشعار، قلائد الجمان ، مج١ ج١ ص٢٥٥.

[٦٥]. المفصل لابن يعيش ، وشرحه الزمخشري. وهما مطبوعان متداولان.

[٦٦]. المصدر نفسه ، مج١ ج١ ص.٢٥٤.

[٦٧]. المصدر نفسه، مج١ ج١ ص.٢٥٥.

[٦٨]. ابن الشعار، قلائد الجمان، مج١ ج١ ص٢٥٥.

[٦٩]. المصدر نفسه ، مج١ ج١ ص ٢٥٩.

[٧٠]. المصدر نفسه، مج١ ج١ ص ٢٦٠.

[٧١]. المصدر نفسه، مج١ ج١ ص ٢٦٥.

[٧٢]. ابن الشعار، قلائد الجمان ، مج١ ج١ ص٢٥٥.

[٧٣]. متداولان. مطبوعان الزمخشري. وهما وشرحه يعيش، لابن المفصل

[٧٤]. المصدر نفسه ، مج١ ج١ ص.٢٥٤.

[٧٥]. المصدر نفسه ، مج١ ج١ ص.٢٥٥.

[٧٦]. ابن الشعار، قلائد الجمان،مج١ ج١ ص٢٥٥.

[٧٧]. المصدر نفسه ، مج١ ج١ ص ٢٥٩.

[٧٨]. المصدر نفسه ، مج١ ج١ ص ٢٦٠.